

من "عثمان الغازي" إلى محمد الفاتح

تنتسب أسرة بني عثمان التي أسست الدولة العثمانية إلى عشيرة "قايي" (Kayı) التي تنتمي بدورها لأتراك "الأوغوز" (Oğuz)، ولقد هاجرت عشيرة "قايي" من آسيا الوسطى إلى شبه جزيرة الأناضول تحت قيادة "أرتغرول" (Ertuğrul) الغازي في عهد سلطان سلاجقة الروم "علاء الدين كيقياد الأول" (١٢٢٠-١٢٣٧م)، ثم سمح لهم السلطان بالاستيطان في منطقة "بيتينا" (Bitinya) الواقعة شمال غربي آسيا الصغرى، أي بالقرب من مدينتي "سوغوت" (Söğüt) و"دومانيچ" (Domaniç)، في مقابل الخدمات التي قدموها لدولته، وبهزيمة جيش سلاجقة الروم على يد المغول الإلخالي في معركة "كوسه داغ" (Kösedağ) عام (١٢٤٣م)، وسيطرة المغول الإلخانيين على الأناضول واتباعهم أساليب عنيفة مع الشعب؛ انهارت النظم الاقتصادية والاجتماعية بالمنطقة، وسيطرت حالة من الفوضى العارمة على مفاصل الحياة في أراضي شبه جزيرة الأناضول، وبدأ التركمان

في هذه السنوات المتوترة بالهرب من اضطهاد المغول الإلخانيين والهجرة والاستقرار في مناطق غربي الأناضول، وبادر حكام التركمان في التحرك بحرية واستقلالية بعدما سيطروا على سواحل بحري "إيجة (Ege)" و"مزمرة (Marmara)"، وذلك عقب فقدان سلاجقة الروم نفوذهم في الأناضول، وبعد وفاة "أزطغرول الغازي"، اختير "عثمان بك" (١) لخلافته في قيادة عشيرة "قايي" التي استقر بها المقام في منطقة "بيتينا"، وعمد "عثمان بك" إلى استغلال الأزمات التي تعيشها إمبراطورية "روما" الشرقية استغلالاً جيداً، وتبنى سياسة "الغزو والجهاد" ضد الإمبراطورية البيزنطية في الغرب بدلاً من الدخول في صراع مع الإمارات التركمانية في الأناضول.

لقد انتقلت "أيدولوجية الجهاد والنضال في سبيل إعلاء كلمة الله" إلى العثمانيين، بصفتهم ورثة الحضارة الإسلامية وتقاليدھا السياسية، وظلت هذه الأيدولوجية لديهم يطبقونها في ظل ظروف مختلفة إلى أن انهارت دولتهم.

وبدأ -بخطى صغيرة ولكنها ثابتة- بالاستيلاء على المُدن التي تخضع لحكم الولاة التابعين للبيزنطيين واحدة تلو الأخرى، وكانت أولى الأماكن التي فتحها مدن "قاراجه حصار (Karacahisar)" و"يار حصار (Yarhisar)" و"بيله جيک (Bilecik)" و"إينه جول (İnegöl)".

ويصف المؤرخ البيزنطي المعاصر "باشيميريس (Pachymeres)" عثمان بك بأنه "كان أكثر القادة العسكريين الذين هاجموا أراضي الإمبراطورية

(١) لمزيد من المعلومات انظر: كتاب "حلما كان واقعا صار (قصة مؤسس الدولة العثمانية)" دار النيل - ٢٠١٤م، القاهرة.

البيزنطية شجاعةً وحيويةً"، وقد دعمت بعض المجموعات المؤثرة في منطقة غرب الأناضول سياسةً "الغزو والجهاد" التي انتهجها "عثمان بك" في التعامل مع البيزنطيين، وأعجب الآخيون^(٢) والغزاة وبعض من رجال دولة سلاجقة الروم بالسياسة التي تبناها "عثمان بك"، وتجمعوا تحت إدارته.

وأخذ نفوذ "عثمان بك" في الزيادة بين الإمارات التركمانية مع تسلمه "قيادة الغزوات" في المناطق الحدودية ضد الدولة البيزنطية، وبدأ بالتحرك وكأنه مستقل بعد سك العملة باسمه، ومن ثم واصل سياسة التوسع في حوض منطقة "سَقَارْيَا" (Sakarya)، وتُسَير السجلات التاريخية إلى أن أول انتصار حققه "عثمان بك" ضد الدولة البيزنطية -التي شعرت بالضيق والخرج من هذه الوضعية- كان في معركة "قويون حصار" التي وقعت عام (١٣٠٢م)، ويروي المؤرخ "باشميريس" هذه المرة أن الغزاة الأتراك تقدّموا حتى وصلوا إلى مضيق البوسفور دون أي مقاومة تذكر من جانب البيزنطيين، وكان الآخيون والفقهاء هم الداعم المعنوي لـ "عثمان الغازي" والمنظم لحياته القانونية والاجتماعية، فكان يتشاور مع الفقهاء حول القواعد الدينية المنظمة للحياة في المناطق التي يسيطر نفوذه عليها، كما كان الفقهاء يقدمون المعلومات والتوجيهات المعنوية للمجتمع ويقومون بخدمات الإمامة والخطابة في المُدن والقرى لدرايتهم بالشريعة الإسلامية وعقيدة أهل السنة والجماعة.

(٢) "الأخية (Ahilik)" -مفردها آخي- هي مؤسسة اجتماعية نشأت في الأناضول في القرن الثامن هجري/الرابع عشر ميلادي، تركزت أعمالها في القيام بخدمة الناس وتعليمهم حب مساعدة المحتاجين والمساكين. (صابان، سهيل: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، الرياض- (١٤٢١ هـ/ ٢٠٠٠ م)، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، ص. ١٣).

نجح "أورخان" (Orhan) بن عثمان الغازي "في فتح مدينة "بُورْصا" (Bursa) التي تُعتبر أكبر مدن البيزنطيين في الأناضول عام (١٣٢٦م)، ومن ثمَّ اتخذها عاصمةً لدولته، وكان الإمبراطور البيزنطي "أندرونيكوس" (Andronikos) الثالث "منزعجاً من فتوحات الأتراك في شبه جزيرة "قُوجَه أَلِي" (Kocaeli) الواقعة شمال غربي الأناضول، وحصارهم لمدينتي "إِزْنِيك" (İznik) و"إِزْمِيْت" (İzmit)، وتصور أنه يستطيع استعادة كلَّ المدن التي أنترعت منه حتى ذلك التاريخ، إلا أن هذا الإمبراطور أنقذ حياته بشقِّ الأُنفس في معركة "بَالِيكَانُون" (Palekanon) عام (١٣٢٩م)، وكانت هذه أولى المعارك التي انتصرَ فيها الأتراك ضدَّ جيش الإمبراطورية البيزنطية، وعقب هذا النصر؛ سيطرَ "أورخان الغازي" على "إِزْنِيك" و"إِزْمِيْت"، وبهذا اكتمل فتح شبه جزيرة "قُوجَه أَلِي"، وبحلول عام (١٣٣٥م) ضمَّ "أورخان الغازي" أراضي "إِمارة بني قَرَاصِي" (Karasi)، لتدخل جميع السواحل الجنوبية لبحر مرمرة ضمن منطقة نفوذ العثمانيين، ومن ناحيةٍ أخرى؛ عبر "سليمان باشا بن أورخان الغازي" بجنوده من مضيق "الدردنيل" إلى منطقة الروملي، واستولى على قلعة "جِيْمْبَه" (Çimpe) التي تُعتبر أولى المناطق التي سيطر عليها الأتراك في البلقان (١٣٥٣م)، وبهذه الطريقة تأسست قاعدةً للأتراك العثمانيين لمتابعة غزواتهم في شبه جزيرة البلقان، لتبدأ فتوحاتهم في تلك المنطقة، كما استطاع "سليمان باشا" الخروج في غزوات وفتح بعض المدن البيزنطية في منطقة "تراقيا" الشرقية خلال فترة قصيرة.

وتمكن العثمانيون من إحراز تقدُّم كبير في منطقة البلقان في عهد "مراد الأول بن أورخان الغازي" (١٣٦٢-١٣٨٩م)، وبدأ أعداء العثمانيين

في البلقان يتزايدون تزامناً مع سيطرة العثمانيين على جميع المدن الواقعة في تراقيا الشرقية، بما في ذلك "أَدِرْنَه" (*Edirne*)، وقد أَحَسَّت دول البلقان بالقلق إزاء فتح العثمانيين لمدينتي "أَدِرْنَه" و"فِيلِيَه" (*Filibe*) وتقدّمهم في أراضي البلقان، فشكّلت أوّل جيشٍ صليبيّ تألّف من الجنود البلغار والصرب والرومان والبوسنيين بقيادة مجريّة، ومن ثمّ شنوا به هجوماً على الأراضي العثمانية، وقد ألحقت قوَّات استطلاعيةً عثمانيةً أرسلها أمير الروملي "لَا لَ شَاهِيْنُ بِاشَا" (*Lala Şahin Paşa*) "أوّل هزيمة بالقوَّات الصليبيّة في معركة "صِرْبُ صِنْدِيغِي" (*Sirpsındığı*)" عام (١٣٦٤م) بفضل هجومٍ مفاجئٍ خطّط له القائد "حَاجِي إِبْنِي" (*Hacı İlbey*)، وغرق معظم الجنود الصليبيين الذين حاولوا الهرب في نهر "مَرِيْج" (*Meriç*)".

وعمد العثمانيون في تلك الأثناء إلى نقل عاصمة دولتهم من "بورصا" إلى "أَدِرْنَه" لرغبتهم في مواصلة فتوحاتهم وتنظيمها بشكل أفضل، وبدؤوا بتوطین التركمان الذين جلبوهم من الأناضول في المناطق التي فتحوها في البلقان بغية أسلمة المنطقة والاستقرار بها، وارتضى ملوك البلغار والصرب بدفع الضرائب إلى العثمانيين بعد هزيمتهم في معركة "جِرْمَن" (*Çirmen*) "عام (١٣٧١م)، وحاول حُكّام البلقان مرّةً ثانيةً وقف التقدّم المفاجئ والسريع للقوَّات العثمانية في المنطقة وطردهم منها، فحشدوا جيشاً صليبيّاً جديداً، ولكنهم تعرضوا للهزيمة مرّةً أخرى من العثمانيين في وادي "كوسوفو" (*Kosova*)، وبينما كان السلطان "مراد الأول" يتفقد ميدان المعركة بعد انتهائها، إذ عاجله جنديّ صربيّ مصاب بطعنة خنجرٍ أردته قتيلاً وذلك في عام (١٣٨٩م)، وقد دخل "مراد الأول" التاريخ كأوّل

سلطانٍ عثمانيٍّ يستشهد في ميدان المعركة، وأُطلق على هذا السلطان لقب "الحاكم الغازي"، وفي عهده تحوّلت منطقة الروملي إلى وطنٍ ثانٍ للأتراك، وتفوّق العثمانيّون على نظرائهم في الأناضول، وبهذه الطريقة تكونُ الدولة العثمانية قد وضعت أولى لبناتها لتكوين دولةٍ عظيمةٍ يهابها الشرق والغرب.

ولما استشهد السلطان "مراد الأول"، خلفه على العرش ابنه "بايزيد الأول" الذي واصل فتوحات أبيه في البلقان، وبحلول عام (١٣٩٣م) صارت بلغاريا بالكامل ولايةً عثمانية، ورسّخت الدولة العثمانية سيطرتها في المنطقة الواقعة جنوب نهر "الدانوب"، وعبرت القوّات العثمانية في ذلك الوقت شمال نهر الدانوب ووصلت للمرّة الأولى إلى "الأفلاق والبُغدان" (جزء من رومانيا الحاليّة)، وامتدّت حملات العثمانيين حتى شبه جزيرة "بيلوبونيز"، وبالرغم من حصار السلطان "بايزيد الأول" للقسطنطينية (إسطنبول) أربع مرّات فقد نجح البيزنطيّون في تخليص أنفسهم من هذا الحصار في كلّ مرّة بفضل الحظّ الذي وقف بجانبهم والمؤامرات التي حاكوها، فعلى سبيل المثال؛ حاصرت القوّات العثمانية عاصمة البيزنطيّين عام (١٣٩٥م)، إلا أنّ القوّات الصليبيّة بزعامه البابا قدّمت الدعم للبيزنطيّين، وتجمّع جيشٌ جرّاء كان هو الأكبر بين الجيوش الصليبيّة إلى ذلك التاريخ بمشاركة قوّاتٍ من جميع دول أوروبا، إلا أن هذا الجيش مُني بهزيمة ساحقة من القوّات العثمانية في وادي "نِغْبُولُو" (Niğbolu) عام (١٣٩٦م)، وكانت هزيمة القوّات الصليبيّة ثقيلاً للغاية لدرجة أنه توجّب عليهم الانتظار لمدة أربعةٍ وأربعين عامًا كاملة حتى يتشّى لهم الخروج في حملةٍ عسكريّة جديدة، ومع هذا النصر المؤرّر

للعثمانيين اضطرت جميع دول البلقان وأوروبا للاعتراف بالسيادة العثمانية على كافة الأراضي الواقعة جنوب نهر الدانوب، ومن ناحية أخرى؛ واصلت الدولة العثمانية عمليات توطين بعض الأناضوليين في منطقة البلقان كما تابعت عملية نشر الإسلام على نطاق واسع في منطقة الروملي، مثلما قام السلاجقة بأسلمة شبه جزيرة الأناضول وتحويلها إلى وطن لهم، ثم عمد العثمانيون أيضاً إلى إدخال الثقافة الإسلامية إلى البلقان، وتحويلها إلى وطن لهم.

وبينما كان السلطان "بايزيد الأول" يواصل فتوحاته في البلقان، ألحق أراضي الإمارات التركمانية في الأناضول إلى دولته، ووسّع مناطق نفوذه حتى نهر الفرات، ما حدا به ليصبح أهم العناصر السياسية الفاعلة في المنطقة بأسرها إلا أن "تيمور لnk" كان قد أسس دولة قوية في آسيا، وبدأ يدرك أن فتوحات العثمانيين في الشرق تمثل تهديداً بالنسبة له، وهو الأمر الذي حتم نشوب حرب بين هاتين الدولتين التركيتين المسلمتين، وقد انتصر "تيمور لnk" في المعركة العنيفة التي خاضها ضد العثمانيين في وادي "جوبوك" (Çubuk) في أنقره عام (١٤٠٢م)، وكانت هذه الهزيمة موجعة للعثمانيين، ذلك لأن القرارات الجذرية التي اتخذها "تيمور لnk" دفعت العثمانيين إلى السقوط والاضمحلال، فلم يكن يرغب في أن يخلف دولة قوية غيره وهو عائد إلى "سمرقند" مقر حكمه، فكانت سياسته تجاه العثمانيين في الغرب هي تقسيم دولتهم إلى دويلات صغيرة وبسط نفوذه عليها، وبدأ "تيمور لnk" في إعادة تأسيس جميع الإمارات التي كان العثمانيون ضمّوها إلى أراضيهم، واعترف باستقلال أربعة من

أشقاء السلطان "بايزيد الأول"، وكأَنَّهُ مهَّد لنشوب حربٍ أهليَّةٍ داخل الدولة العثمانية، واستمرَّ النزاع على عرشِ الدولة العثمانية بين الإخوة الأربعة "سليمان" و"موسى" و"عيسى" و"محمد" بعد "حرب أنقرة" عام (١٤٠٢م) لمدة أحد عشر عامًا، وانتصر أصغرُ الأشقاء "محمد جَلَبِي" في هذا الصراع على إخوته الثلاثة الآخرين، وقد حظي السلطان "محمد جَلَبِي" باحترامٍ وتبجيلٍ كبيرين من المؤرِّخين العثمانيين لنجاحه في إنقاذ الدولة من الانقسام، كما اعتبروه "المؤسس الثاني" للدولة العثمانية.

لقد أجهز "محمد شَلَبِي"، الذي عُرف بـ "محمد الأول"، على الصراعات الناشئة بين إخوته عام (١٤١٣م)، وجلس على عرشِ الدولة خلفًا لأبيه، وشرع في العمل الدؤوب من أجل استعادة الأراضي التي فقدَها والدُّهُ في الأناضول والروملي، وترسيخ دعائم وحدَّة دولته التي تشتَّت، وإعادة إقامة سلطة الدولة بعدما أصابها الضعف والوهن، واضطرَّ في تلك الأثناء لبذل جهودٍ من أجل وأد سلسلةٍ من حركات التمرد والعصيان الداخليَّة، وقد خَسِرَ الأسطول العثماني المتواضع تحت قيادة "جَالِي بَك" أولى معاركه البحريَّة ضدَّ أسطول البندقية عام (١٤١٦م) وبدأ السلطان محمد الأول السيطرة على المنطقة الواقعة جنوب نهر الدانوب مرَّةً أخرى، وأرسل قُوَّاته للمرَّة الأولى منذ فترةٍ طويلة إلى ما وراء ذلك النهر، إلا أنَّ القَدْرَ لم يمُهله كثيرًا، فنوَّقِي هذا السلطان الداهية ذو الحيويَّة والنشاط عام (١٤٢١م) عن عمر ناهز الثانية والثلاثين عامًا، واحتفظ لنفسه بمكانةٍ كبيرةٍ ومتميِّزةٍ في التاريخ العثماني، فالدولة العثمانية نجت من الهلاك والاندثار بفضلِه بعد الله ﷻ، وتمكَّن من توحيد الدولة من جديد ومواصلة غزواتها وفتوحاتها التي توقفت فترة من الزمن.

وبصعود السلطان "مراد الثاني" إلى عرش الدولة العثمانية، ثار عليه الأمراء الذين حرّضتهم الإمبراطورية البيزنطية، كما تمرّد حكام إمارات الأناضول، وواصل السلطان فعاليّات توسيع دولته في الأناضول بعدما رسّخ السلام الداخلي في دولته بعد صراعاتٍ ونزاعات دامت طويلاً، وانضوت معظم الإمارات في الأناضول مرّةً أخرى تحت راية الدولة العثمانية، وشعر حكام البندقية بالقلق والخوف إزاء تقدّم العثمانيين في البلقان من "مقدونيا" إلى البحر "الأدرياتيكي" وسواحل بحر "إيجّه"، وأحسّوا أن هذا التقدّم يضرّ بمصالحهم، كما لم تسلم شبه جزيرة "بيلوبونيز" من تهديد العثمانيين، وأفضت هذه التطوّرات في نهاية المطاف إلى وضع حكام البندقية في مواجهةٍ لا مفرّ منها مع الدولة العثمانية.



مدينة سرايفو

(عاصمة جمهورية البوسنة والهرسك)

نرى أن السلطان "مراد الثاني" كثّف تواجده وفَعالياته في أراضي البلقان اعتباراً من عام (١٤٣٠م)، وهزمت القوّات العثمانية جيشاً صليبيّاً متشكّلاً من قوات صربيّة وأفلاقيّة (رومانية) وبوسنيّة بقيادةٍ مجريّة، وبعد ذلك؛ نجح السلطان في قيادة هجومٍ عسكريّ تمكّن فيه من إسقاط قلعة "سيميدروف"، وقضى على مملكة الصرب عام (١٤٣٩م)، وفرضَ الخراج على إمارات "البوسنة" و"الهرسك"، لكن القوّات العثمانيّة لم تستطع الاستيلاء على قلعة "بلجراد" التي كانت محصّنة ومحكمةً للغاية، وبعد الهزيمة التي تلقّاها العثمانيون عند قلعة "بلجراد"، سارع ملك المجر "لاديسلاس" (*Ladislas*) وحاكم إقليم "أراد" "يانوش هونيادي" (*Jan Hunyad*) إلى شنّ هجومٍ ضدّ الأتراك، وطردهم من "سيميدروف"، وأوقعوا قائد الهجمات العثمانية الشهير "مزيد بك" في الفخّ، ثم عبر نهر الدانوب جيشٌ صليبيّ احتشدَ بتحريضٍ من البيزنطيّين وشارك به ملك المجر وطاغية الصرب وأمير "أفلاق"، ثم دخل الأراضي العثمانية واستطاع إلحاقَ هزيمةٍ بالوحدات العثمانية الاستطلاعية عند وادي "نيش" (*Nis*) عام (١٤٤٣م)، ولم يتمكّن السلطان "مراد الثاني" من إيقاف تقدّم الجيش الصليبيّ، وكان أسوأ ما في الأمر أن حاكم ألبانيا "إسكندر" انفصل عن الجيش العثماني وأعلن تمرّده، كما استغلّ "بنو قرمان" هذه الورطة التي وقع بها العثمانيون، فأغاروا عليهم من الأناضول، ما زاد الأمر وخامةً وسوءاً، ولِحُسنِ الحظّ اضطرَّ الجيش الصليبيّ للانسحاب مع دخول فصل الشتاء، وتآجّلت المعارك بين الطرفين لفترة من الوقت، وخلال هذه الفترة من وقف القتال بدأت مفاوضات السلام بين الجانبين بناءً على طلب من السلطان "مراد الثاني".

أمير صغير يعتلي العرش

وَقَعَ السلطان "مراد الثاني" معاهدة "سيجيدين" (Segedin) "للسلام بتاريخ الثاني عشر من يونيو/حزيران (١٤٤٤م) في "أَدِرْنَه" مع كُلِّ من ملك المجر وطاغية الصرب، ثم استدعى ابنه الأمير "محمد الثاني" من ولاية "مَانِيسَا" (Manisa)، وعيّنه حاكمًا مكانه، وانتقل هو إلى الأناضول، ووقع اتفاقيةً مع حاكم "قَرَمَان" (Karaman) تقضي بضمان عدم اعتداء أحدهما على الآخر، وهكذا ضَمِنَ أمان حدود دولته الشرقية والغربية، ثم جمع رجال دولته في وادي "ميهيلج" (Mihaliç) وقال لهم:

"كنت سلطانكم حتى هذه اللحظة، وسيكون ابني هو السلطان عليكم اعتبارًا من الآن فصاعدًا، لأنني منحتة تاجي وعرشي ولقب السلطان، وتعلموا أنه سيكون سلطان هذه الدولة من الآن فصاعدًا".

معلنًا بشكلٍ مفاجئٍ عن تنازله عن عرش السلطنة لابنه "محمد الثاني"، عقب ذلك آثر السلطان "مراد الثاني" اعتزال الدنيا برفقة الدراويش والزهاد بولاية "بورصا".

لقد لعبَ الحزن -الذي خلفه موت ابنه الأكبر "علاء الدين جَلَبِي" المفاجئ في نفس السلطان، والتعب الذي سيطر عليه بسبب الحروب الطويلة والمرهقة ضدَّ الجيوش الصليبيَّة في البلقان- دورًا مؤثِّرًا في اتِّخاذ "مراد الثاني" قرارًا بالتنازل عن العرش لابنه "محمد الثاني"، وربما رغب السلطان في التعريف بابنه "محمد" كحاكم شرعيٍّ للدولة، وحاول إكسابه الخبرة اللازمة لإدارة الدولة قبل أن يفارق الحياة.

وفيما يلي نسردُ كيف نقل لنا المؤرِّخون العثمانيون هذه الواقعة نادرة الحدوث بأن يتنازل سلطانٌ عن عرشه بإرادته لأحدِ أبنائه:

استطاع السلطان الوصول إلى اتفاقية سلام مع أعدائه بعد عامين مليئين باللحظات الحزينة والمعارك الضارية والأخطار الكبرى، ونجح في ترسيخ دعائم الأمن والطمأنينة في أركان دولته، وأراد بعد ذلك أن يقضي بقيَّة عمره في عبادة خالقه ﷻ بدلاً من بذل الجهد من أجل تنظيم أمور شعبه، ورغب في الاعتزال عن الدنيا وقضاء وقته في مذاكرة العلماء لا في الجلوس على العرش ولبس تاج الدولة وحكمها، كما مال قلبه للعمل من أجل آخرته إذ فضَّل الفقر على بهرجة السلطنة، وصمَّت العزلة على بهاء المُلْك، وأفصح عن فكرته تلك لوزيره "خليل باشا" بقوله:

”انظر يا وزيري العزيز!

لقد بذلت جهدًا كبيرًا على مرَّ السنوات الماضية من أجل تنظيم شؤون الرعيَّة، وتطهير كلِّ رقعةٍ من بلاد الإسلام من الفتن، ومحاربة أعداء الدين والدولة، وخرجت كثيرًا في غزوات الجهاد من أجل رِفْعَةِ هذا الدين، وقضيت سنوات عمري في خدمة الدين، والآن تميل نفسي إلى اعتزال السلطنة، والانزواء من أجل التفرُّغ لذكر الله وعبادته“.

معركة "فارنا"

اعتزل السلطان "مراد الثاني" عرش السلطنة بعد أن ترك ابنه "الأمير محمد" أمانةً في أيدي رجال الدولة الموثوقين من أصحاب الخبرة، وما إن تولّى "محمد الثاني" مقاليد العرش، حتى قام بإرسال السفراء إلى جميع بلدان العالم الإسلامي الكبرى آنذاك، وفي مقدّمتها دولة المماليك في مصر، من أجل إبلاغهم باعتلائه عرش الدولة العثمانية.

وكان صعودُ فتىٍ يافع يبلغ من العمر اثني عشر ربيعاً إلى عرش الدولة العثمانية خلفاً لوالده صاحب الحنكة الكبيرة التي اكتسبها بعدما قضى معظم أيام حياته في ميادين القتال، تُعدّ فرصةً لا تعوّض بالنسبة لحكّام أوروبا، وقد حرّض حاكم بني قَرْمَان "محمد بك" الدول الصليبيّة على الهجوم على الأراضي العثمانية، مؤكّداً أن فرصةً كهذه لا تلوح في الأفق دائماً بقوله:

”من السهل أن يُهزَمَ هذا السلطان عديمُ الخبرة في الحرب التي ستُشنُّ ضده“.

نقض الإمبراطور البيزنطي والبابا معاهدة "سيجيدين" للسلام الموقّعة حديثاً، وبدأ بالضغط على ملك المجر من أجل فسخها لقناعتها بأنه حان الوقت لطرد العثمانيين من البلقان، وبالرغم من إغرابهما عن استعدادهما لتقديم كل أنواع الدعم اللازم لملك المجر من أجل الأخذ بثأر هزيمتهم في معركة "نغبولو" (*Niğbolu*) أمام العثمانيين عام (١٣٩٦م)، إلا أن الملك "لاديسلاس" رفض نقض عهده مع الدولة العثمانية، ما دفع نائب البابا في المجر الكاردينال "جوليان سيزاريني" (*Jülyen Cezarini*) للتدخل والزعم أن أية معاهدة توقّع مع المسلمين دون موافقة البابا هي في حكم العدم، معلناً عن فسخ معاهدة "سيجيدين" قبل أن يجفّ الحبر الذي كُتبت به، وذلك بعدما وافق عليها ملك المجر وأقسم على تنفيذ بنودها، وبناءً على ذلك أقسم المجلس الملكي بالآب والابن وروح القدس والسيدة مريم من أجل فسخ المعاهدة الموقّعة مع العثمانيين وحصار مدينة "أورشوفا" (*Orsova*) مطلع شهر سبتمبر/أيلول ١٤٤٤م، وعندما أعلن حاكم إقليم أراد "يانوش هونيادي" معارضته لفسخ المعاهدة المُبرّمة مع الدولة العثمانية، أفنعهوه بهذا الأمر بعد أن قطعوا له وعداً مؤكداً أن يُنصّبوه ملكاً على دولة "بلغاريا" بعد انتزاعها من أيدي العثمانيين، وطلب "هونيادي" من قادة التحالف ضدّ الدولة العثمانية التمهّل وتأخير إعلان الحرب، ذلك لأن العثمانيين سيسلمون القلاع الواقعة على حدود صربيا تنفيذاً لبنود معاهدة "سيجيدين"، ولم يكن العثمانيون على علم بهذه المؤامرات التي تُحاك ضدهم، فوفوا بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم، وأخلوا القلاع الواقعة على حدود دولتهم الشمالية عندما حلّ وقت تسليمها.

سيطرت حالةٌ من الترقّب والتأهب على أوروبا فورَ إعلان الحرب على الدولة العثمانية، وقد ضمّ هذا التحالفُ الأوروبيّ الصليبيّ إمارات "بوهيميا" و"أفلاق" و"كرواتيا" و"بولندا" و"ألمانيا" و"بابا الفاتيكان" و"حكّام البندقيّة" و"مملكة المجر"، ولما وصل هذا النّبأ إلى "أدرنه" عاصمة الدولة العثمانية، ساد التوتّر والتخبّط قادة الدولة.

عبر الجيشُ الصليبيّ بقيادة ملك المجر "لاديسلاس" نهر الدانوب في الفترة ما بين الثامن عشر إلى الثاني والعشرين من سبتمبر/أيلول ١٤٤٤م، ووصل مدينة "فارنا" مروراً بشمالي "بلغاريا"، ومن ناحيةٍ أخرى؛ سيطر أسطولُ البندقيّة القويّ على مضيق الدردنيل، ومنع نقل القوّات العثمانية من الأناضول إلى البلقان، فتحوّل القلقُ الذي سيطر على القيادة العثمانية في "أدرنه" إلى خوفٍ وهلعٍ، وتيقّن حينها رجالُ الدولة العثمانية أنه لم يعد أمامهم خيار سوى رجوع السلطان السابق "مراد الثاني" واعتلائه عرش السلطنة مرّةً أخرى، فأرسلوا إليه رسولاً يدعوّه إلى "أدرنه".

وتحرّك مراد الثاني من الأناضول على رأس جيشٍ أعدّه لمواجهة القوّات الصليبيّة، وتوجّه صوب مضيق البوسفور لعلّمه بسيطرة أسطول البندقيّة على مضيق الدردنيل، واستطاع دفع السفن البيزنطية الراسية به بوابل من القذائف المدفعية، ثمّ عبر بجنوده إلى الطرف الأوروبي من القسطنطينيّة.

وعندما وصلَ الجيشُ الصليبيّ مدينة "فارنا" بمشاركة أمير "أفلاق" "فلاد دراكولا"، وصل السلطان مراد الثاني "أدرنه" بجيش قوامه أربعون ألف جنديّ وضُعت القادة الصليبيّون عندما علموا ذلك، مما أدّى إلى انهيار معنويّات أفراد وعناصر الجيش الصليبيّ؛ ذلك لأنهم لم يكونوا

يتوقعون أن تعبّر القوّات العثمانيّة إلى البلقان لعلمهم بقطع الطريق أمامهم عبر السيطرة على مضيق البوسفور والدردنيل، فهذا هو السلطان "مراد الثاني" القائد الشجاع المجرب الذي حاربوه سنين عدداً يواجههم مرّة أخرى، وبدأ الخوف يدبّ في نفوس قادة الجيوش الصليبيّة، وأدركوا أن مهمّتهم لن تكون سهلةً على الإطلاق كما كانوا يتخيّلون.

انتابت حالة من الفرح والسرور أركان الدولة والشعب في "أدرنة" عندما وصلها السلطان السابق "مراد الثاني"، وأمر السلطان "محمد الثاني" باستدعاء وزيره "خليل" وقال له:

"هل لك أن تطلب من والدي أن يبقى هنا ويحمي "أدرنة" من هجوم كفّار القسطنطينية؟ وأما أنا فسأخرج للجهاد ضدّ الصليبيّين".

فأجابه الوزير قائلاً:

"يا سيدي! لا أستطيع نقل هذا الكلام إلى السلطان، نحمد الله أنه جاء "أدرنة"، فهو المتصرّف من الآن فصاعداً، فما يأمر به سنطيع، علاوةً على أن هذا العدوّ ليس هيئاً يا سيدي الأمير، وأنّ لا تزال حديث العهد بهذه الحروب".

ولم يستطع السلطان الشابّ إقناع وزيره "خليل باشا"، فخرج لاستقبال والده، فلما التقى به قبل يده، وكرّر رغبته في الخروج بنفسه إلى هذه الغزوة بقوله:

"يا سلطاني! أرجوك أن تصطحبني معك في هذه الغزوة، فأنا أرغب في الخروج للجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الدين أمام هؤلاء الكفار".

فردّ عليه والده السلطان:

”لا يا بني، لا تقل هذا الكلام، نَفَذْ ما أقوله لك، هذا العدوّ قويٌّ للغاية، وأنت من سيحمي هذا العرش في مواجهة كفار القسطنطينية عندما أُخْرَجْ لمواجهة الأعداء“.

وعيّن السلطان "مراد الثاني" ابنه "محمد" كوكيل للسلطان في "أَدِرْنَه"، وخرج لمواجهة الجيوش الصليبيّة بعدما تمّ توديعه من عاصمة دولته بالنصائح وأدعية الخير الوفيرة.

غادر السلطان مراد الثاني "أَدِرْنَه" مسرعاً حتى وصل "فارنا"، وهيّا جيشه لمواجهة جيش العدو، ووفق الخطة التي وضعها لجيشه، كان هو من سيقود جنود الإنكشارية في المتصف، وأسند قيادة جنود الروملي في الميمنة إلى "طُورْخَانْ بَكْ" (Turhan Bey)، وجنود الأناضول في الميسرة إلى "شهاب الدين باشا"، وأما "داود بك" فقد ألحق بالجناح الأيسر للجيش بقيادة مجموعة من المتطوّعين بغية دعم هذا الجناح، وقد عقد السلطان "مراد الثاني" اجتماعاً في خيمته ضمّ أبرز قادته وباشاواته وأمرائه، وخاطبهم قائلاً:

”لقد رافقتموني في كلّ غزوة غزوتها، فأريد أن أراكم في هذه الغزوة أيضاً تُجندلون هؤلاء الكفار بسيوفكم لنصرة الإسلام، تعلمون ما هي مرتبة الجهاد في سبيل الله، وكيف أنّ منزلة الشهادة عظيمةٌ وجليلة، وما دمنا قد أتينا هذه الدنيا؛ فلا بدّ أن نموت، وإن كان الأمر كذلك، فلننتهز هذه الفرصة السانحة ونؤدّي الواجب المفروض علينا بالخروج في الجهاد وقاتل الأعداء، من سيصاب منا فهو غازٍ منتصر، ومن سيقتل فهو شهيد عند ربه يرزقه بغير

حساب، ولنستغل هذه الفرصة كي نصِلَ إلى غايتنا في الدنيا والآخرة“.

فأجابه جنود الإنكشارية والباشاوات والأمرأء بقولهم:

”أرح قلبك يا سلطاننا، فسنقاتل الكفار نصرَةً لديننا وطاعةً لك، وسنحارب أعداء الدين وسنضحي بأرواحنا في سبيل الله ومن أجل النصر، حفظك الله يا سلطاننا ما دامت السموات والأرض“.

وقد قضى السلطان "مراد الثاني" ليلته تلك من بعد صلاة العشاء إلى صلاة الفجر وهو يصلي ويتضرع إلى الله كي ينصره على أعدائه، وفي الصباح انطلقت القوات العثمانية للهجوم على الجيوش الصليبية.

لقد صادف يوم المعركة عيد القديس "مارتين التوروزي"، وهو ما لعب دوراً مؤثراً في مضاعفة الجُرة والأمل لدى الجيش الصليبي، لا سيما وأن عدده كان يتفوق على نظيره العثماني، وخاطب ملك المجر "لاديسلاس" قادة جيشه بقوله:

”أريد أن أرى شجاعتكم في ميدان المعركة، وإياكم أن تبادروا إلى السلب والنهب إذا ما هرب جيش العدو، لا ترجعوا عن تبئعهم حتى تقضوا عليهم عن بكرة أبيهم، فكما يقول المثل "يجب أن تقتل النحلة أولاً ثم تأكل عسلها" لا تبخلوا ببذل الجهد من أجل النصر، فلو انتصرنا على الأتراك، لن تقف قوة أخرى أمامنا“.

وكان تعداد الجيوش الصليبية حوالي مائة ألف مقاتل، وأما الجيش العثماني فكان قوامه في حدود الستين ألف جندي.

وبدأت الحرب بين الجيشين بشكلٍ عنيفٍ للغاية بهجوم نفذه "يانوش هونيادي" على الجناح الأيسر من الجيش العثماني، و"فلاد دراكولا" على رأس قوّاتٍ رومانية على الجناح الأيمن، وفي الوقت الذي حدثت فيه تصدّعات في صفوف قوّات الأناضول التي أظهرت مقاومةً بأسلّةٍ في مواجهة هجمات العدو؛ بادرت قوّات الروملي بالانسحاب من أرض المعركة واستشهد أمير أمراء الأناضول "قاراجا باشا" هو والعديد من حكام الإمارات، وكان السلطان "مراد الثاني" يدير الحرب من دون أن يتحرّك من مكانه تحيط به قوات "قَابِي قُولُو" (*Kapikulu*)^(٣) الخاصة، وذلك بالرغم من أن علامات الهزيمة بدأت تلوح في الأفق، وأدرك حينها القائد العام للجيش الصليبية "لاديسلاوس" أن سير المعركة يصبُّ في مصلحتهم، فشنَّ هجومًا بقواته البولندية على مركز الجيش العثماني، غير أن القوات العثمانية تراجعت بشكلٍ مفاجئ، ثم عادت إلى مكانها عبر مناورة احترازية، وأحاطت بالقائد المجريّ من كلّ اتجاه، فأصابه جنديّ عثمانيّ بضربةٍ من بلطته الجبّارة فأرداه قتيلاً وهو على متن حصانه، وقد قطع جنديّ الإنكشارية الذي قتله ويُدعى "قوجا خضر"، رأس "لاديسلاوس"، وعلقها على رمح، وعلّق بجوارها نسخةً من المعاهدة التي نقضها بالرغم من قطعه عهدًا على نفسه بتنفيذ بنودها، وفطن "يانوش هونيادي" حينئذٍ أن جيشه لن يستطيع تحقيق النصر أمام القوّات العثمانية، فلم يجد حيلةً إلا في الهرب بقوّاته المجريّة والبولندية الأفلاقية (الرومانية)، وبقيت جثتا

(٣) لفظ مركّب، "قابي" بمعنى الباب و"قولو" بمعنى عبد، أي عبيد الباب ويطلق على مجموع جنود الدولة العثمانية الذين يشكّلون فرق المشاة والخيالة العاملين بأجر، وكانوا يسمون "دركاه عالي قوللري" (*Dergah-ı Âli Kulları*).
(صابان، سهيل: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص ١٧٢).

الملك "لاديسلادس" والكاردينال "سيزاريني" في أرض المعركة، وخسرَ العثمانيون في هذه المعركة عشرة آلاف جنديٍّ، فيما تجاوزت خسائرُ الصليبيين أكثرَ من ذلك بكثير.

وكما جرت العادة لدى الأتراك، أجرى السلطان "مراد الثاني" زيارةً تفقديةً إلى ميدان المعركة، وخلالها قال لأحد قادته ويُدعى "عزب بك":
 "يا لها من مسألةٍ محيرةٍ، ليس بين هؤلاء الصليبيين أيّ كبيرٍ في السن، فكلهم في ريعان الشباب".

فردّ "عزب بك" قائلاً:

"يا سيدي! لو كان بينهم كبيرٌ ذو لحيةٍ بيضاء وخبرةٍ وحنكةٍ لما كانوا أقدموا على هذه المحاولة المجنونة، فلقد قادهم غرورُ الشباب إلى تدمير أنفسهم".

وبعد انتهاء المعركة والنصر الذي أحرزه العثمانيون، أُرسِلَ نبأُ البشرى إلى عاصمة الدولة في "أدرنة"، وُبُعِثَت رسائلُ الفتح إلى حكام الأقطار الإسلامية، وأُرسلت رسالةٌ للتبشير بهذا الفتح إلى سلطان الدولة المملوكية في مصر، إضافةً إلى هديةٍ مكوّنةٍ من عشرين فارساً مجرياً مدرّعين من منبتٍ شعره إلى أخصص قدميه، أسروا خلال الحرب، وقد قرأ المبعوث العثماني "عماد الدين عزب بك" رسالة النصر على السلطان المملوكي في القاهرة، فنظر السلطان إلى الفرسان المجريين وقال:
 "كان الله في عونكم يا آل عثمان".

ودعا للسلطان مراد بالخير، وأمر السلطان المملوكي بذكر اسم السلطان "مراد الثاني" في خطبة الجمعة بعد اسم الخليفة، والدعاء له بالخير والبركة.

وبهذا النصر الذي حقّقه الدولة العثمانية في "فارنا"، تعرّضت مملكة المجر وبولندا المتحدة -التي كانت تمتد من بحر البلطيق شمالاً إلى البحر الأدرياتيكي جنوباً- لضربةٍ كادت تقضي عليهما، ولم يعد هناك أيّ قوّة بإمكانها تهديد الوجود الإسلامي في شبه جزيرة البلقان كما تبدّت آمال الدولة البيزنطية في الحصول على دعمٍ من دول أوروبا.

وعندما وصل مراد الثاني "أدرّنه" قادماً من فارنا، لم يذهب إلى الأناضول مباشرةً، وفُضِّل البقاء إلى جانب ابنه في عاصمة دولته لفترةٍ من الوقت حتى يزول الخطر بالكامل، وبعد ذلك عاد مجدّداً إلى "مانيسا" رافضاً مطالبات الوزير "خليل باشا" وبعض رجال الدولة بالبقاء والعودة إلى تولّي مهام السلطنة.

وما إن غادر مراد الثاني "أدرّنه" إلى "مانيسا"، حتى بدأت المنافسة بين وزراء السلطان الشاب "شهاب الدين باشا" و"زَغانوس باشا" و"خليل باشا" تظهر في الأفق بشكلٍ جليٍّ، وبينما عمد فريق السلطان "محمد الثاني" إلى الاقتراح على السلطان الشابّ باتباع سياسة جهاديّة فعّالة تضعّ الغزوات في المقام الأوّل، كان الفريق المقابل يميل إلى التصرّف بحَيطةٍ وحذرٍ وإلى ممارسة سياسةٍ خارجيّةٍ أكثر سلميّة، وكان فريقُ الصقور (دعاة الحرب) وفريقُ الحماثم (دعاة السلم) في العاصمة العثمانية يتنافس كلٌّ منهما على استمالة السلطان الشابّ إلى صفّه، وكان السلطان محمد في صفّ الصقور ويتحرّك وفقاً لتوجيهاتهم.

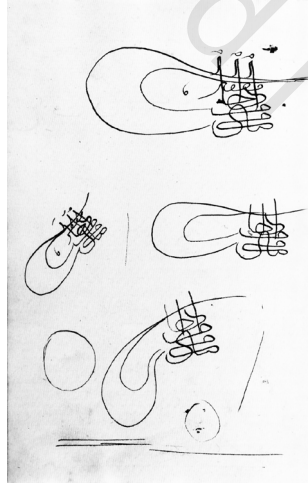
وقد نشب حريقٌ مروّعٌ في "أدرّنه" عام (١٤٤٦م)، فضرّر سكان المدينة كثيراً جرّاءه، كما أعلن جنود الإنكشارية تمردهم وأنهم سيولّون الأمير "أورخان" الموجود لدى الدولة البيزنطية مقاليد الدولة العثمانية إن

لم يعتلِ السلطان "مراد الثاني" العرش، إضافةً إلى زيادة التوتّر على حدود الدولة، وهذا ما دفع "خليل باشا" وفريقه للإصرار في دعوة السلطان السابق للعودة إلى العرش، وهو ما استجاب له "مراد الثاني" الذي عاد إلى "أدرنة"، وجلس على عرش دولته مرةً ثانيةً، ومن ثم أعلن ابنه "محمد الثاني" ولياً للعهد، وعيّنه أميراً على ولاية "مانيسا"، وقد كسبت "الحمام" المنافسة ضمن هذه الحقبة من الزمان.

لقد اكتسب الأمير خبرةً لا يستهان بها في العديد من المجالات خلال الفترة التي قضاها على عرش الدولة فيما بين عامي (١٤٤٤-١٤٤٦م)، وتعرّف إلى الشعب ونظام الدولة والجيش عن كثب، وحصل على معلومات ذات صلة بالسياسة الخارجية، وتابع التوازنات الحساسة داخل الدولة بنفسه عن قُرب، ولقد أثّرت هذه الفترة الأولى من تولّيه عرش السلطنة في شخصيته أيما تأثير، ونشأت لديه في هذه الفترة الخبرة في كيفية كسْر سلطة الوزراء القدامى من المتصرفين بحذر أكثر من اللازم، وترويض طبقة الإنكشارية، ونهج سياسة جهادية حيوية تقوده لفتح القسطنطينية.

ولا ريب أن الفوائد والخبرة التي تلقاها الأمير خلال العامين اللذين اعتلى فيهما عرش السلطنة العثمانية لعبتا دوراً محورياً في تحديد السياسات التي سيطبقها خلال فترة تولّيه عرش الدولة العثمانية لثلاثين عاماً ابتداءً من عام (١٤٥١م)، وانشغل "الأمير ولي العهد" خلال السنوات الخمس التي قضاها حاكماً على "إمارة مانيسا" بتنمية معارفه السياسية والثقافية بشكل أكبر.

وبدأ السلطان "مراد الثاني"، العائد حديثاً إلى عرشه مرةً ثانيةً، بالتركيز على قضية شبه جزيرة "بيلوبونيز"، وكان "قسطنطين باليولوج" -الذي سيجلس لاحقاً على عرش الدولة البيزنطية- قد احتلّ المناطق الخاضعة للعثمانيين مستغلاً انشغالهم بحرب "فارنا"، كما أنه رفض طلب الدولة العثمانية بإخلاء المناطق التي احتلّها، غير أن دخول مغاوير القوّات العثمانية الجزيرة وجعلهم عاليها سافلها أجبر "قسطنطين" على الاعتراف بتبعية الجزيرة للدولة العثمانية مجدّداً، ثم خرج الجيش العثماني في غزوة لردع حاكم ألبانيا "إسكندر بك" لتمرّده، وقد شارك الأمير الشاب محمد في هذه الحملة العسكرية في صيف عام (١٤٤٨م)، لكن قادة الجيش العثمانيّ أنهوا هذه الحملة بعدما وصلَ عددٌ من الرسل تبعاً إلى قيادة الجيش؛ وتواترت الأنباء عن مقدم "يانوش هونيادي" على رأس جيش عظيم بغية الانتقام والثأر لهزيمة "فارنا".



السلطان الفاتح ينقش طغراءه الخاص في فترة إمارته



جندي إنكشاري

حرب "كوسوفو" الثانية

جلس "لاديسلاس السادس" الابن الأصغر لإمبراطور ألمانيا "ألبيرت" على عرش مملكة المجر عقب مقتل ملكها السابق "لاديسلاس" في حرب "فارنا"، وعُيّن "يانوش هونيادي" نائباً لهذا "الملك الصبي"، ليتحرّك كيفما يحلو له، ويخطّط ليفوز بقلب القائد الذي طردَ العثمانيين من أوروبا، ومن ثم يجلس على عرش المجر مستغلاً السمعة التي سيحقّقها بفضل هذا الإنجاز، ولم ينتظر كثيراً من أجل تنفيذ مخططاته تلك، فدعا البابا ودول أوروبا لتجهيز جيش كبير، وبالفعل استطاع أن يحشد جيشاً تخطى تعدادُه التسعين ألف جنديّ من المجرّيين والإيطاليّين والألمان والبولنديّين والتشيكيّين والسلافيّين، ونظّمه بشكلٍ دقيقٍ للغاية، ثم دخل أراضي العثمانيين واحتلّ "صربيا".

وتحرّك السلطان "مراد الثاني" مسرعاً من "ألبانيا" إلى "صوفيا" بناءً على هذه المستجدّات العاجلة، وأعدّ جيشه للقتال، ومن ثمّ تتبّع قوَّات العدوّ ووصلَ إلى وادي "كوسوفو"، وكان قوام الجيشين متقارباً، وقد عرض السلطان على عدوّه مبادرةً للسلام قبل اندلاع الحرب -وفق ما تملّيه عليه تقاليد الإسلام-

إلا أن العدو رفضَ هذا العرض، فبدأ الجيشان بالقتال، وكان السلطان "مراد الثاني" وابنه "الأمير محمد" يتمركزان في منتصفِ الجيش على رأسِ القوَّات الخاصَّة، وفي الميمنة قوَّات الروملي، وفي الميسرة قوَّات الأناضول، وأما قوَّات المغاوير صاحبةُ الخبرة في الحروب فقد كُلِّفت بالهجوم في موقعِ المقدَّمة، وحُصِّنت مؤخَّرةُ الجيش بعرباتِ الحمولات والذخيرة.

استمرَّت الحربُ التي وقعت بين الجيش العثماني ونظيره الأوروبي الصليبي في وادي "كوسوفو" ثلاثة أيام في الفترة ما بين السابع عشر والعشرين من أكتوبر/تشرين الأول في سنة (١٤٤٨م)، واستطاع الأتراك في هذه المعركة أن يُطبِّقوا خطَّة "فَخَّ الذئب"^(٤)؛ بحيث تراجعت للخلف قوَّات الميمنة والميسرة في البداية، وما إن رأى الجيش الصليبي هذه الوضعيَّة حتى ظنَّ أن القوَّات العثمانيَّة تنهار وتشبُّث بالهرب، فهجَم على مركز الجيش العثماني من أجل تحقيق النصر الأكيد، وكان هذا الهجوم ما يريده ويتنظره الجيش العثماني؛ إذ بادرت قوَّات الميمنة والميسرة التي تراجعت إلى الخلف بالعودة بشكلٍ مفاجئ، ومن ثمَّ أحاطت بقوَّات الجيش الصليبي من الخلف وأغلقت الدائرة عليه، وهو ما جعل قوَّات العدو بين شِقَي الرحي لا تقدر حتى على الهرب، وبدأت

(٤) خطَّة فخ الذئب: حيث إنها استراتيجية عسكرية تهدف إلى القضاء على العدو عبر تطويقهِ من كل جانب، وقد كانت هذه الخطَّة شديدة التأثير في المعركة، وتم على مرحلتين: ١- التراجع الكاذب، ٢- الخداع والكمين. فكان الجيش ينفضل في لحظة الحرب إلى ثلاثة أفرع: الوسط والميمنة والميسرة؛ فتهاجم قوات الوسط العدو، وتراجع إلى الوراء وكأنها تفرُّ من الأرض المعركة، وعلى حين تقوم بهذا تواصل الحرب بإطلاق السهام وهي على ظهر الخيل، وبهذه الطريقة كان العدو الذي يتبع الجنود المنسحجين من الخلف ينسحب إلى المكان المنصوب فيه الكمين بين ميسرة الجيش وميمنته، ويتم القضاء عليه حيث يشدُّ عليه الخناق.

وكان خالد بن الوليد ؓ من أفضل القادة الذين طبَّقوا هذه الاستراتيجية الحربية في معركة الوجة عام (٦٣٣م)، وكذلك "آب أرسلان" في معركة "ملازگرد (Malazgirt)"، وأيضاً السلطان "سليمان القانوني" في معركة "موهاج (Mohac)".

القوات العثمانية الضغط على العدو من كل جانب وكأنها مكبس حديدي، مما جعلها تصل إلى مرادها وتدمر قوات العدو بشكل كبير، وسقط سبعة عشر ألف جندي من قوات العدو، وتمكن القائد العام للجيش الصليبي "يانوش هونيادي" من النجاة بنفسه من هذه المعركة بصعوبة بالغه وذلك بفضل حماية العربات المجهزة بالأسلحة النارية.

وأدرك الأوروبيون بعد هذه الهزيمة في حرب "كوسوفو" الثانية أنهم لن يستطيعوا طرد العثمانيين من البلقان، وأن الثقافة الإسلامية باقية في منطقة الروملي، هذا إضافة إلى استيقان البيزنطيين بأنهم لن يستطيعوا الحصول على دعم من أوروبا في مواجهة الدولة العثمانية، ومن الآن فلاحقاً سيتحوّل الصليبيون إلى مرحلة جديدة وهي مرحلة الدفاع، فيما سيبادر العثمانيون ويتحولون إلى مرحلة الهجوم، أضف إلى ذلك أن الدولة العثمانية تمكنت من تأمين حدودها الغربية، الأمر الذي كان يحمل أهميّة قصوى من أجل فتح القسطنطينية.

خرج السلطان "مراد الثاني" برفقة ابنه "الأمير محمد" عام (١٤٥٠م) في غزوةٍ إلى ألبانيا لحلّ النزاع القائم بها بعدما اضطرّ لمغادرتها قبل إكمال مهمته، غير أن السلطان عاد أدراجه من دون أن يستطيع تحقيق النتيجة المرجوة بسبب الهجمات العنيفة التي نفذتها قوات حاكم ألبانيا "إسكندر بك"، وانتشار شائعات تُفيد بأن "يانوش هونيادي" تحرّك للهجوم على الأراضي العثمانية، وحلول فصل الشتاء وما تبعه من أحوال جوية سيئة.

وشهد ذلك الشتاء زواج "الأمير محمد" بـ"سّتي مُكرمة خاتون" ابنة "ذو القادر أوغلو سليمان بك" وسط مراسم زفافية فخمة أقيمت بالعاصمة "أدرنة" ودعي لحضورها جميع الحكام والأمراء الذين تربطهم علاقة

صداقة بالدولة العثمانية، وبعد حفل الزفاف، عاد "الأمير محمد" مع زوجته إلى مقرّ إمارته في "مَانيَسَا".

توفي السلطان "مراد الثاني" بعدما أصيب بالشلل بتاريخ الثاني من فبراير/شباط عام (١٤٥١م) عن عمرٍ ناهز السابعة والأربعين، ودُفن في ضريح مكشوف السقف في فناء جامع "مرادية" في بورصا وذلك تنفيذًا لوصيّته، وأطلق شعبه عليه لقب "مراد بك العظيم" و"مراد العظيم الغازي" احترامًا له وحُبًّا لأخلاقه، وقد اشتهر السلطان رحمه الله بصفات حُسن الخلق والكرم والعدل والرحمة والوفاء بالعهد والشجاعة وحسن التدبير والقيادة والزعامة؛ حيث كان رجل دولة من الطراز الأول والرفيع، تولّى السلطانُ عرش الدولة العثمانية وهو شاب يافع يبلغ من العمر سبعة عشر ربيعًا، وسارت حياته منذ ذلك الحين إلى أن وافته المنيّة بين الغزوات والفتوحات، ويُروى عن السلطان "مراد الثاني" أنه كان محبًّا لمجالس العلم، وأنه كان يحمي العلماء ويقضي يومين من أيام أسبوعه بصحبة العلماء والفقهاء في حلقاتهم، وأنه كان يرسل ثلاثة آلاف وخمسمائة فلورين سنويًّا إلى القدس الشريف وخليل الرحمن ومكة المكرمة والمدينة المنورة، كما أمر بإنشاء أوقافٍ خيريّة لرعاية الفقراء، وبالرغم من أنه قضى أغلب حياته في الغزوات والفتوحات الخارجية، إلا أنه لم يهمل تعمير دولته، فأولى اهتمامًا خاصًّا بأعمال الإنشاء والتعمير، حتى اشتهر بين الشعب بلقب "أبي الخيرات".



مقابر تركية بمدينة "صوفيا"

obeikandi.com

السلطان الفاتح على العرش من جديد

أرسل الصدر الأعظم "خليل باشا" خطاباً إلى "الأمير محمد" لإبلاغه بوفاة والده وضرورة العودة إلى العاصمة، فتحرّك الأمير مسرعاً إلى "أدرنه" عبر شبه جزيرة "جليبولو" (*Gelibolu*)، لتُقام مراسم مبايعته سلطاناً على عرش الدولة يوم الخميس الموافق للثامن عشر فبراير/شباط من عام (١٤٥١م)، ليكون بذلك سابع سلطانٍ في سلسلة سلاطين الدولة العثمانية.

كان قد أتمّ عامه التاسع عشر قبل أيام، ويصِفُ المؤرّخ البيزنطيّ الأمير "دوكاس" مراسم جلوسه على العرش في قصر "أدرنه" على النحو التالي:

"اصطفّ جميعُ السادة وكبار الدولة أمامه، وكان وزيراً والده "خليل باشا" و"إسحاق باشا" يقفان على الجانب بعيداً عنه قليلاً، فيما كان وزيراه "شهاب الدين باشا" و"إبراهيم باشا" يقفان بجواره مباشرةً طبقاً للعادات المتبعة، وقد سأل "محمد" الوزير "شاهين" حينها بقوله:

"لماذا يقف وزيراً والدي بعيداً؟ استدعهما، واطلب من خليل باشا أن يجلس في مكانٍ يتناسب مع مكانته، وأما إسحاق باشا فليذهب إلى دفن جثمان والدي في بورصا برفقة

سائر وجهاء الأناضول الآخرين، ومن الآن فصاعدًا سيكون هو من يتولّى شؤون الأناضول“.

وما إن سمع الوزيران السابق ذكرهما هذه الكلمات، هرولا ليقفًا أمام السلطان الجديد ويقتبلا يده، وبقي خليل كوزير، فيما نقل إسحاق جثمان السلطان مراد ودفنه في الضريح الذي بناه في "بُورصا".

عين السلطان الجديد "إسحاق باشا" أميرًا لأمرء الأناضول، وأُسند منصبه السابق إلى "شهاب الدين باشا"، وقد حفظ على "جَانْدَرَلِي خليل باشا" منصبه كوزيرٍ أعظم، بالرغم من تدهور علاقته معه بسبب الأحداث السابقة عند اعتلائه عرش السلطنة ثم إعادته وليًا للعهد وحاكمًا لولاية "مَانِيَسَا"، ومع ذلك فإن السلطان الشاب كان يرغب في الاستفادة من خبرة "خليل باشا"، الذي كان له تأثير كبير على الإنكشارية في مجال السياسة الخارجية، فلقد كان ذا خبرة ومهارات واسعة في هذا المضمار، غير أنه جعل الصدر الأعظم وحيدًا في العاصمة بواسطة التعيينات الجديدة التي قام بها من جانب آخر، كما عزل "عيسى بك بن أوزجور" أمير أمرء الأناضول، الذي كان مكلفًا بمتابعته خلال السنوات التي قضاهها في "مَانِيَسَا"، وعين مكانه "إسحاق باشا"، وعين أيضًا "شهاب الدين باشا" و"صاروجا باشا" و"زَاغَاوُس باشا" و"إبراهيم باشا" في منصب وزارة الديوان، وبالتالي شكّل الكادر الوزاري الخاص به.

وبدت وضعيّة السلطان الجديد هذه المرة مختلفة تمامًا عن تلك الوضعية التي كان عليها عندما تولّى عرش السلطنة للمرة الأولى قبل عدة سنوات؛ إذ كان الوضع السياسي المحيط بالدولة العثمانية قد تحسّن بعد

النصر في حرب "كوسوفو الثانية"، وقويت الهيمنة العثمانية في البلقان، وفقد الأورويون الشجاعة الكافية لتنظيم حملاتٍ صليبيّةٍ جديدةٍ على الأراضي العثمانية.

وما إن سَمِعَ حكام أوروبا بجلوس السلطان "محمد الثاني" على عرش الدولة العثمانية، أرسلوا سفراءهم لتقديم التهاني للسلطان الجديد، وعرض عدد من الاتفاقيات والمعاهدات عليه.

وصل مدينة "أدرنة" سفراء الإمبراطورية البيزنطية، وإمبراطورية الروم في طرابزون وملك الصرب وملك المجر وممثلون عن طاغية "مورا" وحكومات أفلاق وراجوزا وجنوة وجزيرتي ميديللي وصاقيز (خيوس) وفرسان رودس ومستعمرة "جلطة" في "جنوة".

وكان السلطان الشاب لديه تصوّرات وأفكارٌ مستقبلية، فسعى من أجل تحقيقها عن طريق الترحيب بالعروض المعقولة التي عُرضت عليه لرغبته في انتهاج سياسة سلميةٍ مع دول الجوار، ذلك لأن هدفه الحقيقي هو فتح القسطنطينية، وكان "قسطنطين الحادي عشر باليولوج" يجلس على عرش الدولة البيزنطية منذ عام (١٤٤٩م)، وقد حاصرتها الأراضي الخاضعة للعثمانيين الذين يتوسعون باستمرارٍ منذ قرنٍ ونصف من كلّ جانب، ولم يتبقّ من أراضيها سوى القسطنطينية وبعض القلاع الواقعة على سواحل بحر مرمرة.

خطّط السلطان "محمد الثاني" لتأمين حدود دولته قبل كلّ شيءٍ، وجدّد في هذا الإطار معاهدة السلام القائمة مع البندقية، ووقع اتفاقيةً

جديدةً مع المجر تمتدُّ لثلاث سنوات، وتودّد السلطان لسفراء الصرب، وتنازلَ لهم عن بعض القلاع الحدودية، كما جدّد الاتفاقيات القائمة مع الدولة البيزنطية، ومنحها قلعة "جورلُو" في مقابل عدم التخلّي عن الأمير "أورخان" حفيد "بلدرِيم بيازِيد"، وكان من بين التعهدات التي قطعها السلطان على نفسه تزويد البيزنطيين بمبلغ ثلاثمائة ألف درهم سنوياً من أجل تلبية احتياجات الأمير "أورخان".

إلا أن الأوروبيين أخطؤوا تقدير سياسة السلام التي اتّبعها السلطان "محمد الثاني" بعد جلوسه على عرش الدولة العثمانية، وأفضى عودة والده إلى عرش الدولة عقب وقوع العديد من الأحداث الصعبة خلال فترة سلطنته الأولى؛ إلى تفكير الأوروبيين وظنّهم أن هذا السلطان ذو شخصيّة عاجزة وغير محنّكة، ولهذا السبب سيطرت حالة من الفرح العارم على كافّة أرجاء أوروبا عقب وفاة السلطان "مراد الثاني" وتولّي ابنه "محمد الثاني" العرش خلفاً له، وتوقّع ملوك أوروبا أن الدولة العثمانية ستقسم وتتفرّق بين يدي هذا الفتى اليافع.

لقد اقترح الإيطالي "فرانسيسكو فيليفلو" (*Francisco Filelfo*)، الذي قضى سبع سنوات من عمره في بلاط الدولة البيزنطية، على حكام أوروبا التحركّ دفعةً واحدةً في الحال من أجل استغلال هذه الفرصة السانحة، فأرسل خطاباً إلى ملك فرنسا "شارل السابع" قال فيه:

"إن السلطان العثماني الحالي غير كفءٍ وجاهلٌ وغير قادرٍ على الصمود أمامنا، ولا يمتلك خبرةً حَوْض الحروب، كما أن الأثرak في الوقت الحالي لن يستطيعوا حشد أكثر من ستين ألف

جندي، وبالتالي لن يتمكّنوا من الوقوف أمام جيوشنا، ولهذا بإمكان جيوشنا التقدّم بسهولة تامّة حتى القسطنطينية، والاتحاد مع الجيش البيزنطي، وطرد العثمانيين من البلقان إلى غير رجعة، حتى إن قواتنا تستطيع العبور إلى آسيا، ومحو الوجود التركي من على الخريطة، وعدم السماح لهم بالاتّحاد أو التجمّع مرّة أخرى“.

وختم خطابه بعبارّة:

”إذا كان الأمر كذلك، فهلم إلى الأمام يا ملك شارل!“